دور الشعوب في عملية الإصلاح والتغيير على مستوى العالم الإسلامي

الأستاذ بشار القوتلي

باحث إسلامي / لبنان

عبر تاريخ نضالات الشعوب في العالم، تتألق دوماً أسماء شخصيات هي في الحقيقة تجسيد حي وبلورة واضحة لإرادة الجماهير الشعبية.

وفي صفحات تاريخ النضالات الإسلامية يبرز اسم الإمام الخميني ناصعاً متألقاً، بوصفه العلامة المضيئة للحرية. وتظهر لنا صفحات تاريخ الشعوب كم هي قليلة تلك الشخصيات التي وقفت موقف الرد والرفض أمام محاولات التبعية والإستعمار، وسارت قدماً نحو أهدافها بالإعتماد فقط على قوة الإيمان والعقيدة وعلى احتضان شعوبها.

وفي المئوية الأولى لولادة الإمام الخميني، نحاول في هذه الورقة أن نبحث في دور الشعوب في عملية الإستنهاض على مستوى العالم الإسلامي، آملين أن نكون قد أسهمنا في التوصل إلى تحقيق غاية المؤتمر في عملية التلاقي وتبادل الرأي والحوار، وإحياء ذكرى السيد الخميني.

وتريد هذه الورقة عرض موقف الإمام الخميني ورؤيته إلى دور الشعوب في عملية التغير والإصلاح على مستوى العالم الإسلامي، وتبيان أثر الثورة الإسلامية التي قادها في دفع وتعزيز هذه العملية، وذلك من خلال البحث في النقاط التالية:

أولاً: الأهمية الإستراتيجية للعالم الإسلامي.

ثانياً: واقع الشعوب الإسلامية وتنوع الحركات الفكرية والسياسية.

ثالثاً: المواجهة التاريخية ويقظة الشعوب والمجتمعات الإسلامية بوجه

الحكومات الإستعمارية.

رابعاً: مقاومة الشعوب الإسلامية لسياسة التبعية والتغريب.

خامساً: حكومات الإستبداد ورؤية الإمام الخميني لدور الشعوب في العالم الإسلامي.

سادساً: منهج الإمام الخميني... منهج المواجهة والمقاومة.

وثمة من يحاول ان يقدم بعض الإجابات عن ظاهرة اليقظة الإسلامية لهذه الشعوب، معالمها، أشكالها، ومضمونها. ونقطة البدء هي أن هذه الظاهرة المعاصرة ليست ظاهرة عفوية في مفاهيمها، وإنما هي ظاهرة قديمة الجذور، حديثة الشكل والمظهر خلال هذه المرحلة من التاريخ، ولقد سبقت في الظهور مرات ومرات، ولكنها كانت تخفت وتنهزم لأسباب منوعة في كل مرحلة.

ومع تطور وسائل النشر والإعلان، وكثرة عدد الوافدين الى بلادنا من المستشرقين والباحثين الأجانب لدراسة هذه الظاهرة ومراقبتها، وانعقاد المؤتمرات والندوات في الجامعات ومراكز الأبحاث في بلاد أوروبا وأميركا وغيرهما من القارات، يتأكد الإنطباع حول الموضوع بشأن لفت النظر والإنتباه الشديد أو الإثارة أو التخويف من اليقظة الشعبية الإسلامية وآثارها. والإشارة الى العناوين والشعارات والمصطلحات التي استخدمت هناك، تحدثت عن يقظة الإسلام، انبعاث الإسلام، إحياء الإسلام، المسلمون قادمون الخ.

إن قسماً من هذا الحديث المتداول في بلاد أوروبا وأميركا حول قضايا المسلمين والبلاد الإسلامية، إنما يعبر عن صراع تاريخي من مواريث النظرية التاريخية الثقافية الكامنة في الفكر والممارسة الأوروبية والأميركية[1] نتيجة حروب الممالك المسيحية الأوروبية ضد بلاد المسلمين ودولهم إبان العصور الوسطى، وكذلك منذ أيام الحروب الصليبية التي تركت آثاراً لا تزال حتى اليوم.

(١) ستودارد. حاضر العالم الإسلامي. ترجمة عجاج نويهض. دار الفكر. بيروت. الجزء الأول. ص ٢٨٩.

ويمكن القول إن الأغلبية من الباحثين والكتاب الأجانب حول الإسلام والمسلمين والشعوب والبلاد الإسلامية انما يعبرون في نظرتهم إلينا عن إيمانهم وتأثرهم بأفكار ومبادئ وعلاقات التبعية القائمة بين دول الشمال الغني المتقدم ودول الجنوب الفقير المتخلف، حيث تقوم غالبية الشعوب والبلاد الإسلامية في هذا الجنوب.

ولئن شكل تراجع الإستعمار المباشر في القسم الأول من القرن العشرين بداية في نهضة الشعوب الإسلامية، فقد كان للإمام الخميني وثورته الأثر الأبرز في تأجيج روح الثورة الشعبية والتغيير، وإطلاق ديناميكية مستمرة على صعيد العالم الإسلامي من أقصاه الى أقصاه، آخذة أشكالاً مختلفة من إصلاحية الى جهادية، خصوصاً في مناطق الإسلام البرزخية بينه وبين حضارات أخرى مهيمنة، أو المناطق / الممرات الإستراتيجية، حيث يحصى اليوم ما يزيد على إحدى عشرة مواجهة تخوضها الشعوب الإسلامية ضمن ما يمكن تسميته بالإنتفاضة الشاملة.

ان الرؤية الموضوعية ليقظة الشعوب الإسلامية المعاصرة، تتطلب تحديد معالم هذه اليقظة، والأشكال التي تأخذ بها في عصرنا لكي تعبر عن ذاتها، وأن نحدد الأهداف والمطالب التي ترفعها هذه الشعوب بأشكالها وأنواعها المختلفة.

الأهمية الإستراتيجية للعالم الإسلامي

إن النظام الجغرافي للعالم الاسلامي ينطوي على مجموعة متميزة من المكونات الإستراتيجية، لها انعكاساتها المهمة على ظاهرة اليقظة الإسلامية وعلى امتداد العالم المعاصر. وتتميز جغرافية الدول الإسلامية بعدد من السمات هي:

أولاً: الترابط الأرضي

تكوّن غالبية الدول الإسلامية نطاقاً جغرافياً متصلاً من النصف الشمالي من أفريقيا والجزء الغربي من آسيا، أي من خط طول ١٨° غرباً على ساحل غرب أفريقيا الشمالية، الى خط الطول ٩٠° شرقاً، حيث إقليم سيكيانغ الصيني شرق كشمير. أما

بالنسبة لخطوط العرض فتمتد هذه الكتلة الجغرافية من خط عرض ٢° جنوباً في جمهورية الصومال حتى خط عرض ٥٥° شمالاً، حيث الحدود الشمالية لجمهورية كازاخستان في وسط آسيا. وتصل مساحة هذه الكتلة المتصلة حوالى ٣٠ مليون كيلومتر مربع، أي نحو ٢٠ في المئة من مساحة الكرة الأرضية.

وهناك كتلة جغرافية إسلامية أخرى تتكون من جزر وأشباه جزر جنوب شرق آسيا وتتكون أساساً من دولتي أندونيسيا وماليزيا. وتمتد هذه الكتلة بين خطي طول ٩٩° شرقا و١٤٠° شرقاً وبين خطي عرض ١٠° جنوب خط الاستواء و٨° شمال خط الاستواء، وتصل مساحة هذه الكتلة الى مليوني كليومتر مربع، ناهيك عن مناطق إسلامية كثيرة متفرقة في الهند وفي الصين.(١)

ويتضح أن دول العالم الإسلامي تبلغ مساحتها مجتمعة حوالى ٣٢ مليون كيلومتر مربع، أي ٣٠ في المئة من مساحة العالم.

ثانياً: التميز الإستراتيجي

يشغل العالم الإسلامي موقعاً إستراتيجياً بين مناطق العالم ودوله، حيث نجد أن معظم انحاء العالم الإسلامي تطل على مسطحات مفتوحة تخترقها أهم الطرق البحرية العالمية. ويطل العالم الإسلامي على المحيط الأطلسي الذي يمر به حوالى ٥٢ في المئة من التجارة العالمية لدول الغرب الأوروبي- الأميركي، كما أن سواحل البحر المتوسط الجنوبية والشمالية والشرقية هي إسلامية أيضاً. ويتحكم العالم الإسلامي في مداخل بحرية مثل قناة السويس في مصر ومضيقي الدردنيل والبوسفور في تركيا ومضيق جبل طارق في المغرب الأقصى، كذلك يقع المحيط الهندي في جنوب العالم الإسلامي، وتتحكم دوله الإسلامية في مداخله فتسيطر جمهورية اليمن على مضيق باب المندب من الشرق، وجيبوتي من الغرب، وتشرف ماليزيا على مضيق ملقا، وهو المعبر الشرقي للمحيط الهندي من الشمال،

(١) محمد عصفور. فتحي سعيد. موضوعات في جغرافية الشعوب العربية والإسلامية. القاهرة ١٩٨٢، ص ٥٢

وأندونيسيا من الجنوب باتجاه المحيط الهادي.

وتمتد من المحيط الهندي أذرع مائية تمثل بحيرات إسلامية وتتصل بالبحر الأحمر والخليج العربي في معظم سواحلها، إذ تشرف على الخليج العربي إيران والعراق والكويت والإمارات العربية المتحدة وعمان، كما تطل سواحل البحر الأحمر على مصر والسودان وأريتريا وجيبوتي واليمن والسعودية والأردن. وتشكل سواحل جزر ايريان جايا الغربية وسلبيس الحد الشرقي للعالم الإسلامي على المحيط الهادئ في أندونيسيا[1]. وقد تزايدت الأهمية الإستراتيجية لموقع العالم الإسلامي بتدفق البترول في أراضيه، ولا سيما بعد أن بلغ إنتاجه ثلاثة أرباع الإنتاج النفطي العالمي[2]. وانعكس هذا بوضوح ولا سيما على تصعيد حركة اليقظة الإسلامية المعاصرة لشعوب العالم الإسلامي الذي يبلغ تعدادها حوالى مليار نسمة.

واقع الشعوب الإسلامية

وتنوع الحركات الفكرية والسياسية

إن رؤية واقع الشعوب الإسلامية ومقوماتها في عملية الإستنهاض وأبعادها الفكرية في هذه المرحلة التي تسود فيها العالم صراعات القوى الأجنبية والعقائد السياسية والإقتصادية المنوعة على مستويات إقليمية وعالمية، تقتضي ملاحظة ما يجري في داخل بلاد المسلمين ودولهم ومن حولها. ولذلك من الطبيعي أن تحاول الدول المتصارعة أن تستغل وتستثمر ظاهرة يقظة هذه الشعوب أو بعض تياراتها، كما أن عدداً من هذه القوى تحاول إلقاء الشكوك والإتهامات حول يقظة هذه الشعوب بالتعاون مع عدد من الحكومات في البلاد الإسلامية ذاتها.

---

(١) نبيل عبد الفتاح. الأبعاد الإستراتيجية للعالم الإسلامي المعاصر. مجلة السياسة الدولية. العدد ٦١.

(٢) سكارسيا. العالم الإسلامي وقضاياه التاريخية. ترجمة سمير سعد. دار ابن خلدون. بيروت ١٩٧٤، ص ٥٩ - ٨٠.

وعلى الرغم من أن هناك اختلافاً شديداً وتبايناً واضحاً بين مجموعات القيادات الإسلامية في كل مجتمع، وبين سائر المجتمعات، من حيث مستويات الفكر والتنظيم والتكتيك والعمل السياسي والفكري، وترتيب الأولويات والأهداف والغايات المرحلية، كما أن مقتضيات التكيف أو المواجهة مع الأحداث والأوضاع العالمية المتغيرة تترك أثرها بالإيجاب أو السلب، تبعاً لتصرفات هذه القيادات وممارساتها وردود فعلها، مما ينعكس بدوره على واقع ودور الشعوب في بلدان العالم الإسلامي. والواضح أنه لا يوجد تنظيم عالمي يضبط، وينظم، ويوحد عمل ونشاط وتوجهات هذه اليقظة التي تضم جماهير وحركات وتنظيمات وأحزاباً سياسية، وحركات مقاومة مسلحة وثورات الخ.. ولكن توجد تنظيمات في داخل دول العالم الإسلامي الرسمي السياسي المعاصر، كما توجد تنظيمات واتصالات عبر الحدود بين مجموعات من هذه الدول وذلك في مناطق عديدة، تمولها وتنظمها حكومات، إضافة إلى أشكال أخرى من الهيئات التي تدعمها حكومات أيضاً مثل «منظمة المؤتمر الإسلامي» في المملكة السعودية، وتنظيمات أخرى تضم أحزاباً وهيئات وجماعات مثل «مؤتمر تجمع علماء المسلمين» في باكستان، و «جماعة الشعوب العربية والإسلامية في مصر» وغير ذلك من الهيئات.

إن هناك اتفاقاً عاماً دائماً بين كل الجماعات والتيارات والحركات الإسلامية هو إقامة حكومة إسلامية في كل مجتمع ينشطون فيه. ولكن هناك رؤى هامة في ما بينها يجب التأمل فيها.

١- إن هذا الإتفاق العام ليس على مستوى واحد من تصميم النموذج الإسلامي وأبعاد المؤسسات التي تقوم داخل المجتمع.

عندما ندرس مواقع الحركات الإسلامية المتعددة، نجد أن بعضها استطاع أن يواكب حركة السلطة ويتداخل معها في حركة الحكم بشكل أو بآخر، من خلال إقامة مشروع الدولة الإسلامية [١]، وهذا ما نلاحظه في تجربة النموذج الإيراني

(١) غسان بن جدو. خطاب الإسلاميين والمستقبل. دار الملاك. ص٢٠٥.

والسوداني، مما يجعل مستقبل هذه الحركة هنا وهناك مرتبطا بمستقبل الحكم، أو العكس من حيث إمكانية قدرة الحركة على حماية مؤسساته، والإستفادة من النمط الغربي لمؤسسات الدولة بآلية إسلامية (البرلمان). أما الحركات الإسلامية الأخرى فإنها لم تتحول الى دولة، بل بقيت في ساحة الصراع تواجه السلطة من جهة والتيارات الموجودة في الساحة من جهة أخرى، حيث دعا البعض منها الى إقامة الخلافة في الحكم «حزب التحرير الإسلامي» والمدرسة التوفيقية التي مثل بداياتها الأولى الأمام محمد عبده وانطلقت مع دعوة تلميذه محمد رشيد رضا، وكانت تحاول التوفيق بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي.

٢- إن هذا الإتفاق في داخله نقاط خلافية بين أهل المذاهب الإسلامية ومواقعها داخل العالم الإسلامي. وتفصيل هذا يكون بدراسة الخلافات والتباينات الفكرية بين الجماعات والتيارات والحركات الإسلامية المختلفة.

منذ الحرب العالمية الأولى وما أنتجته من تقسيم للبلاد الإسلامية، اكتسحت الثقافة العصبية بشكل خطير العالم الإسلامي، وحل بدل الخطاب الإسلامي الموحد، الخطاب التعصبي- المذهبي[١]. كما عملت بعض الأجهزة الحكومية في بعض البلدان الإسلامية على إشاعة العصبية المذهبية ونبش التراث العنصري، وقد استهلك كل فريق في وعيه الإسلامي الأحقاد التاريخية والمذهبية. وشكل ذلك خطاً تراجعياً أمام فكرة الوحدة الإسلامية، كما أُدخل كمٌّ كبير من القضايا والنقاشات عن عمد أو بدونه، في إطار المناظرات والدراسات، بعضها ألصق به جو من التضخيم والإثارة، منها المفهوم الفقهي لمسألة ولاية الفقيه، والإبقاء على باب الإجتهاد مفتوحاً في أمور الدنيا، وقضايا أخرى، الأمر الذي جعل هناك نوعاً من الشك والحذر في خلفيات كل حركة في ما تخطط أو تتحرك.

---

(١) عادل رؤوف. الإمام الخميني رجل القرن الحادي والعشرين. دار الحق، ص ٧٥.

٣- كما أن هناك نقاطاً خلافية في استراتيجية وتكتيك العمل السياسي من أجل تحقيق الأهداف، فهناك مفاهيم الشرعية، ومفاهيم العمل السري، وهناك حركات العنف الثوري، وحركات الدعوة بالحسنى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهناك حركات النخبةوتنظيماتها، وحركات الجماهير وتنظيماتها.

لعل المشكلة الأولى أن هذه الحركات الإسلامية عاشت في مجتمع منفصل، لا يلتقي فيه الإنسان المسلم بالآخر، بحيث لا يعرف عنه شيئاً إلا من خلال الإصدارات والكتب الموجهة التي اقتحمت الواقع الإسلامي من أجل أن تفصل الحركة الإسلامي بعضها عن بعض، خوفاً من الوحدة التي تشكل مشكلة للأنظمة المرتبطة بالنظام العالمي المستكبر.

وانطلاقاً من ذلك، استخدمت الحركات الإسلامية ـ كلٌ حسب موقعها وظروفها ـ أساليب متعددة في المواجهة، منها يدعو إلى العنف والجهاد سبيلاً للتغيير وتحقيق هدف إسقاط النظام مثل «الجماعات الإسلامية» في مصر و«منظمة العمل الإسلامي» في العراق، ومنها من يدعو إلى أسلمة المجتمع من خلال بناء الفرد المسلم، بينما هناك حركات انطلقت من الدعوة وصولاً إلى ممارسة الكفاح والجهاد لاستلام السلطة (حزب الدعوة الإسلامية)، وهناك من يطرح إقامة حكومة إسلامية تعتمد مبدأ الشورية في الحكم (الأخوان المسلمون في مصر)، إضافة الى حركات وتنظيمات إسلامية ترى في السلطة ملاذاً لاستمراريتها وبقائها.

لذلك، فإنه من بسيط القول حسبان دور الشعوب ويقظتها في دول العالم الإسلامي المعاصر، تعود الى السبب الوحيد والهدف الأوحد هو مجرد رفع شعار وتحقيق مطلب الحكم الإسلامي في الدول والمجتمعات الإسلامية المتعددة في آسيا وأفريقيا، وإنما هذه اليقظة هي تعبير يحمل في طياته مجموعة من حقائق وتطلعات داخل إطار حياة شعوب العالم الإسلامي ومجتمعاته، هذا الإطار الحياتي هو جزء لا يتجزأ من الإطار الدولي المعاصر والنظام العالمي الراهن.

المواجهة التاريخية ويقظة الشعوب والمجتمعات الإسلامية بوجه الحكومات الإستعمارية

إن لكل مرحلة من مراحل هذه المواجهة أوضاعها وقوانينها التي تحكم التوقيت، وتهدد القوى الاجتماعية المتصارعة حول قضايا المرحلة.

فالعالم الإسلامي قد هجع الى حد أن الوضع فيه كان يعيش حالة من الركود في حركيته[1]، ولم يرصد هذا الفكر حركة التغيير في أوروبا وفي أميركا وكل ما نتج عن التراكم الرأسمالي والتوسع الإستعماري. وقد استيقظ العالم الإسلامي أول مرة لدى وصول الجيوش الأجنبية الى أراضيه تحت شعار الحرية والتجارة. فقد توسعت روسيا في بلاد المسلمين في أواسط قارة آسيا، في الفترة التي كانت فيها إيران من أكثر دول الشرق الأوسط تنازلاً للغرب وتحديداً لبريطانيا ولروسيا القيصرية. ففي عام ١٨٥٢ ميلادي منح ناصر الدين شاه بريطانيا أضخم تنازل تحصل عليه في التاريخ، إذ وضع تحت تصرفها جميع مصادر الثروة الصناعية من النفط والخامات، الأمر الذي أثار غضب الروس، الذين كانوا ينافسون الإنكليز من أجل السيطرة على إيران[2]. كما توسعت دول غرب أوروبا الإستعمارية مثل البرتغال وهولندا عن طريق البحر لتحتل وتسيطر على أندونيسيا والشرق الأقصى ثم على أفريقيا، وليتمّ بعدئذ تقسيم السلطنة العثمانية والوطن العربي في فترة الحرب العالمية الأولى، قبل أن يتم إنشاء الكيان الصهيوني بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

وخلال هذه الفترة، حاربت دول العالم الإسلامي، وقتل زعماؤها، وهزمت عسكرياً، وخضعت البلاد للحكم الاستعماري الأجنبي. وعلى الرغم من ذلك شهدت الفترة التاريخية التالية لفرض الحكم الأجنبي انتفاضات وثورات متكررة، وكانت اليقظة الإسلامية تظهر وتخبو وتتقدم وتتراجع. وبعد الحرب العالمية الثانية

---

(١) محمد حسين فضل الله، الصحوة الإسلامية، مجلة المنطلق العدد ٥٤، أيار ١٩٨٩، ص ٧.

(٢) محمد حسنين هيكل، مدافع آية الله، ص ٤٣.

انتشرت في آسيا وأفريقيا حركات التحرر الوطني، وقاد زعماء المسلمين الأحزاب والقوى السياسية، وأسهمت الجماهير والشعوب الإسلامية في الكفاح والنضال الوطني لتصفية الحكم الإستعماري، وتم هذا بنجاح بقيام الدول الوطنية المستقلة من أندونيسيا شرقاً الى المغرب العربي غرباً.

وفي ظل الدول المستقلة بعد الحرب العالمية الثانية تبين للشعوب الإسلامية وللقوى الإجتماعية الجديدة أن الأهداف والغايات التي حاربت من أجلها الأجيال السابقة من أبنائها لم تتحقق تماما، وأن الدول المستقلة بعد تصفية الإستعمار القديم ما زالت خاضعة للهيمنة الأجنبية من خلال أساليب ووسائل جديدة «فقد تم ربط هذه الدول المستقلة، اقتصادياً وثقافياً بالدول الإستعمارية» كما أن تجارب التنمية والتغيير والإصلاح الإجتماعي والسياسي، لم تؤدِّ الى إنهاء النفوذ والسيطرة الأجنبية بصورة جذرية وتامة. من هنا بدء التيار الإسلامي بوجه عام، والجماعات والأحزاب والحركات الإسلامية العديدة في التحرك وفي المعارضة وفي العمل السياسي، مستندين في هذا التحرك الى جذور تاريخية من الكفاح ضد العدو الأجنبي، وكذلك الى دورس وخبرات وممارسات عريقة في المواجهة ضد النفوذ والحكومات الإستعمارية الأجنبية.

مقاومة الشعوب الإسلامية لسياسة التبعية والتغريب

لقد قاوم المسلمون سياسات تحطيم المقومات الثقافية والتاريخية والحضارية لمجتمعاتهم ولشعوبهم، كما تمسكوا بالدفاع عن الذاتية الثقافية والوجود الثقافي والديني والحضاري والعقائدي لبلادهم ولشعوبهم ،«لأن العقيدة كانت قد تبلورت في أمثلة عديدة، وليس مصادفة أن يكون أول شعار يطلقه الجيش المصري وهو يقتحم خط «بارليف» في حرب رمضان في شهر تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣ هو شعار «الله أكبر» الذي أعطى المقاتلين العرب المصريين اندفاعاً حماسياً هائلاً[١].

---

(١) لمزيد من المعلومات. راجع كتاب حرب اكتوبر. محمد حسنين هيكل.

وبعد تجارب التنمية والتغيير الإجتماعي في ظل الدول المستقلة ثبت لدى القيادات الإسلامية وجوب طرح تصميم نماذج جديدة للتنمية والتقدم، لأن طرق التنمية الملائمة لدول العالم الإسلامي وأساليبها، ليست هي الطرق التقليدية التي شهدتها مجتمعات الدول الأوروبية والأميركية، ولأن الرضوخ لسيادة ولسيطرة حضارة واحدة ذات إطار ثقافي واحد وذات منظومة واحدة من القيم والسلوك، إنما يمثل عدواناً على الخصوصية الحضارية والثقافية للشعوب الإسلامية وغير الإسلامية من خارج تلك المنظومة.

ويؤكد هذا الموقف الإسلامي ما أقرته هيئة اليونسكو من قرارات وتوصيات خاصة بالدفاع عن الثقافات الوطنية والاستقلال الثقافي، والوجود الحضاري لكل شعب من شعوب العالم، خاصة شعوب العالم الثالث التي تهددها محاولات السيطرة «الحضارية» والثقافية من جانب القوى العظمى والدول الأجنبية. ويؤكد هذا أيضاً، ما أصاب تجارب التنمية والتحديث من أزمات ومن فشل في معظم بلاد العالم الثالث عامة، والبلاد والمجتماعات الإسلامية خاصة، «حيث تعمقت القطيعة بين الدولة والمجتمع ومسخت الهوية واستلبت الذات»، فبرز خطاب الحركات الإسلامية كنقيض للسائد الضحل من خلال «العودة الى الذات»[1]، وإنتاج فكر إسلامي، يصوغ مشروعاً حضارياً بوجه الهيمنة الخارجية، ويحفظ عناصر القوة الداخلية، ويهدف الى تحقيق التنمية وصيانة الإستقلال.

حكومات الإستبداد ورؤية الإمام الخميني لدور الشعوب في العالم الإسلامي

ومن الأمور المسلّم بها أن الحالة الإسلامية تستند إلى قواعد جماهيرية متنوعة التنظيم والتعبئة والوعي، وتختلف من دولة الى أخرى. ورغم وجود نوع من التناغم والتنسيق غير المباشر في ما بينها، فإن غالبية هذه القواعد والقيادات ترفض

(١) غسان بن جدو. خطاب الإسلاميين والمستقبل. دار الملاك. ص ٧.

وتقاوم الإستبداد السياسي، وتعمل على كشف ممارسته المزيفة والإصرار على تعرية حقيقته وفضح أهدافه[١]، ويكون هذا الإستبداد عقدة التخلف في المجتمعات الإسلامية، علماً بأن مصدره حكام أنظمة بعض الدول الإسلامية بصورة أو بأخرى. من هنا ،فإن الشعوب الإسلامية تتمسك بالدفاع عن حقوقها الوطنية، التي تختزن في تاريخها سجلاً حافلاً وطويلاً لأئمة القيادات والمواطنين الذين ثاروا على الاستبداد، وقدموا أرواحهم دفاعاً عن حقوق الإنسان المسلم، والمجتمع، ولتقويم الحكومات المستبدة أو تغييرها.

أدرك الإمام الخميني مخططات المستعمرين من خلال قراءته الواعية لممارسات الاستعمار في ايران والعالم الإسلامي، كما اتخذ الإمام الخميني دوماً مواقف ملتزمة وحازمة من الغزاة الإمبرياليين، أثبتت جدارة موقعه لقيادة مسيرة الثورة الإسلامية نحو الانتصار على أكبر قواعد الإستكبار العالمي. كذلك وعى الإمام الخميني دور الشعوب في عملية التغيير، لا سيما شعوب العالم الإسلامي، ومن هذا المنطلق أبدى الاهتمام والحرص على مسلمي العالم. فمسلمو العالم هم حجر الأساس في استراتيجية النظام الإسلامي[٢]، رغم تشعب وتنوع القضايا التي شغلت وعي الإمام وأيامه، بدءاً من المشروع الإسلامي التي كانت متداخلة ومترابطة داخل إطار دور الشعوب واستنهاضها في عملية الإصلاح والتغيير.

وهكذا بدا الإمام شمولياً في تعاطيه مع موضوعاته، لا في ذاتها وحسب، وإنما في ما تستند إليه من شروط وأسباب ومقدمات. وهذه السمة القيادية التي وسمت دور الإمام الخميني، «تمثل الإنسان الذي يملك المقومات الفكرية والروحية والعملية التي يستطيع من خلالها أن يدفع بالتخطيط الحركي الى نتائجه الكبيرة بعقلانية ودقة وإخلاص».

ولذلك كان بمقدور معاصري الإمام وقارئيه، أن يلحظوا أن القضية الأولى التي

---

(١) مجلة التوحيد. العدد ٨٩. ملف جمال الدين الأفغاني ومشروعه الإصلاحي.

(٢) السيد الخامنئي. ملف الإمام الخميني والمشروع الحضاري. مجلة التوحيد. العدد ١٠٠، ص ٢٢.

اهتم بها الإمام كانت اليقظة الإسلامية، رغم طبيعة الواقع الإسلامي الذي عانت منه الشعوب الإسلامية، حيث جعلها تعيش حالة من الركود وتغرق في الكثير من الهوامش والتفاصيل، حتى أن البعض صار يطرح الإسلام في دائرة العباديات والأخلاقيات العامة والتشريعات الفردية بعيداً عن مسائل الحياة العامة في نطاق المسؤوليات السياسية والجهادية[1]. بالمقابل، وتعبيراً عن رفضه لواقع الحال الذي كانت تعيشه الشعوب الإسلامية، بدأ الإمام الخميني يخطط لحركة إسلامية سياسية تعمل على إعادة الإسلام الى الحياة العامة، في حركة الفكر والتشريع والجهاد[2].

وهذه الحركة الاسلامية الجديدة أفسحت المجال واسعاً لنشاط إسلامي سياسي وفكري شمل مختلف بلدان العالم الإسلامي حتى شمل هذا النشاط حركات متعددة تختلف في التفاصيل أو النظرة السياسية، ولكن تعمل من منطلقات إسلامية بحتة.

وحينما تفجرت الثورة الإسلامية في إيران التي قادها الإمام الخميني، واستطاعت أن تتفاعل مع محيطها الواسع، كان لانتصار هذه الثورة الإسلامية صدى الزلزال في العالم كله، لأن الثورة التي قادها السيد الخميني أعطت دليلاً على مدى القوة التي يملكها الإسلام في صنع الثورة والتعبير الإجتماعي والسياسي. مثلما صنعت البرهان على قدرته على المواجهة والتحدي لأعداء المسلمين، وهذا المنعطف التاريخي أعاد الثقة للمسلمين بإسلامهم، وجعل الحس السياسي يتبلور ويتفاعل في الحس الإسلامي. وهكذا كف المسلمون عن النظر الى الإصلاح نظرة سلبية، وأصبحت الدعوة الى عملية التغيير الشامل الذي يأخذ عنوان الثورة على الإستكبار ومصالحه، مقرونة بالقدوة والتجربة التي قادها السيد الخميني.

وأمام هذا الواقع، انطلقت الحركات الإسلامية في بلدان العالم الإسلامي لتتسع

---

(١) السيد محمد حسين فضل الله. الصحوة الإسلامية: إشكالات ومواقف وتطلعات. مجلة المنطلق، العدد ٥٤. ص ٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وتتحرك من خلال هذه الروح الجديدة التي حولت الإسلام الى تيار جارف. وكانت الثورة الإسلامية في إيران القاعدة الصلبة التي انطلقت منها روحية هذه اليقظة الإسلامية وحركتها، وخلقت تأثيرها على الجو الإسلامي بشكل مباشر، لاسيما بعد أن تحولت الى دولة واتخذت موقعها في ساحات الصراع الدولي.

يعتبر الإمام الخميني «أن هذه الثورة قد قامت بالدرجة الأولى من أجل العالم الإسلامي، وبالدرجة الثانية من أجل المستضعفين والمحرومين الذين يسعون من أجل تحررهم»[١]، لكنها انطلاقة الى كل المنطقة وكل الشعوب بهدف توحيدي هو «تثبيت واستقرار القيم الإسلامية وحدها»[٢]. من هنا كان يقين الامام أن التجربة الثورية لإيران نموذج للعبرة والإعتبار لدى سائر المسلمين، وذلك «لأن اشتراك المجتمع الإيراني مع سائر المجتمعات الإسلامية، لم يكن في التاريخ والثقافة والمشاكل الناتجة عن الإستعمار وأمثاله فحسب، بل هو ناتج عن التشابه في الواقعيات الإجتماعية الحية، والقوى الموجودة بالقوة والفعل»[٣].

فمن خلال الوعي الكامل لجرائم المستعمرين والصهاينة وخططهم المدمرة لاستقلال بلدان العالم الإسلامي، والرؤية الإستشرافية لتحقيق العدالة الإلهية وتحرير القدس الشريف، يدعو الإمام الخميني هذه الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية للإستنهاض والثورة، والإمساك بمقدرات بلدانها وإسقاط الظلم أينما كان، وإلغاء آثاره وتحقيق العدالة بشتى أبعادها السياسية والحقوقية والإجتماعية والإنسانية. «يا مسلمي العالم... ويا مستضعفي الأرض، هيا الى النظام الذي جاء من قبل الله تعالى لتقدمكم وتكاملكم وإزالة الظلم ونصرة المظلومين في العالم»[٤]، وهذا النداء يلخص نظرة الإمام الخميني لدور الشعوب في عملية التغيير الإجتماعي والسياسي والثقافي، ويعبّر عن نزعته الى نصرة الحق وإقامة العدل في الأرض.

---

(١) مرتضى مطهري، مقالات حول الثورة، ص ٥٩.

(٢) سمير سليمان، الإمام الخميني والمشروع الحضاري الإسلامي، ص ٥٦.

(٣) الإمام الخميني، الحكومة الإسلامية ص ٤٩.

(٤) نداء الإمام لمسلمي العالم، الثورة الإسلامية والاستكبار العالمي ص ٥٢.

وفي نص آخر يدعو السيد الخميني الشعوب الإسلامية الى الإقتداء في التصدي لإعدائها، بأن تجعل ما حدث في إيران نموذجا لها. كما أن الإمام الخميني يحث هذه الشعوب على النزول الى الشوارع مطالبين حكومتهم بمواجهة إسرائيل والتصدي لها ودحرها[١]، وهذه الدعوة تعبر عن قناعة الإمام الخميني من هذه الحكومات، وهذا موقف أورده الإمام بشكل خاص في وصيته السياسية الإلهية، اذ قال: «وأما وصيتي الى الشعوب الإسلامية فهي: اجعلوا حكومة الجمهورية الإسلامية وشعب إيران قدوة لكم، وإذا لم تستجب حكوماتكم الجائرة لإرادة الشعوب التي هي إرادة شعب إيران فأجبروها بكل قوة على الإستجابة لذلك، فإن أساس شقاء المسلمين هو الحكومات المرتبطة بالشرق والغرب»[٢]. كذلك أوصى السيد الخميني مسلمي العالم ومستضعفيه قائلاً: « وصيتي الى جميع مسلمي العالم ومستضعفيه هي: يجب ألا تجلسوا فتنتظروا أن يأتي حكام بلدكم ومن يعنيهم الأمر أو القوى الأجنبية، ويجلبوا الإستقلال والحرية هدية لكم»[٣]. وإدراكاً منه لدور القوى السياسية المنظمة في تحقيق أهداف الشعوب في الإستقلال والحرية والعدل، توجه السيد الخميني الى حركات التحرر العالمية قائلاً: «أيتها الحركات التحررية، وأيتها الشعوب المناضلة على طريق الحرية والإستقلال، قوموا وأنذروا شعوبكم وجميع الشعوب الإسلامية وقولوا لها: إن الخضوع للظلم أسوأ من الظلم وأقبح منه، وحذروا الحكومات كي تنفض عنها غبار الذل والإستكانة»[٤].

منهج السيد الخميني.. منهج المواجهة والمقاومة

لقد أدرك الإمام الخميني أهمية الدور والعوامل التاريخية والنفسية لقواعد الإسلام وتثبيتها في عملية اليقظة الإسلامية واستنهاض الشعوب الإسلامية.

---

(١) كتاب الإمام في مواجهة الصهيونية. ص ١٥٥.

(٢) الوصية السياسية الإلهية.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الثورة الإسلامية والاستكبار العالمي. نداء الإمام لحركات التحرر

وتأتي في طليعة قواعد الإستنهاض المساجد التي قال الإمام إنها: «قلاع الإسلام الحصينة»[1]، وذكر بتاريخها الجهادي ودورها في توحيد الأمة وخدمة قضايا الإسلام في العالم.

أما القاعدة الثانية، فهي اعتماد الإمام الخميني في دعوته على مستوى العالم الإسلامي، فهي قاعدة الحج التي خصص لها رسالة سنوية يعرض فيها القضايا الإسلامية الكبرى ومشاكلها، مستنهضاً همم المسلمين في وجوب التحرك الشامل للتصدي لها. وفي رسالته لحجاج بيت الله الحرام (١٣٩٩ هجري)، يقول الإمام «إن القوى الكبرى تنهب ثرواتنا المعنوية والمادية، وتتركنا في فقر تحت سيطرتها الاقتصادية والسياسية والثقافية، ولا يمكن التخلص من هذا الوضع إلا بالعودة لشخصيتنا الإسلامية، ورفض الظلم والطغيان، وفضح القراصنة الدوليين وعلى رأسهم أميركا».

ولقد كان موسم الحج فرصة نادرة بالنسبة للإمام ليوصل حملة استنهاضه الى كل المسلمين في العالم، عبر هذا الإجتماع الحاشد المقدس الذي ليس بمقدور أي إنسان أو أية دولة عقد اجتماع بحجمه وأهميته[2].

كما اعتمد الإمام للتحرك من أجل اليقظة الإسلامية على قواعد أخرى، منها معاني شهر محرم ودلالاته وثورة الإمام الحسين(ع) ودلالاتها وقيمها الجهادية بوجه الظلم والطغيان[3]، مستهدفاً من دروسها دفع عملية استنهاض المسلمين وتحريضهم على الإنتفاضة والتضحية دفاعاً عن الإسلام ومصالح المسلمين.

ولم يكتف الإمام باعتماد شهر محرم، بل اعتبر شهر رمضان المبارك قاعدة كبرى لاستنهاض شعوب العالم الإسلامي، يستمد من لياليه وأيامه نفحاتها الروحية ليوجه المسلمين ويدعوهم الى مقاومة طواغيت العصر والناهبين

(١) سمير سليمان. الإمام الخميني والمشروع الحضاري الإسلامي، ص ٩٩.
(٢) الإمام الخميني، توجهات الإمام.
(٣) سمير سليمان. الإمام الخميني والمشروع الحضاري الإسلامي، ص ١٠١.

والدوليين[1]. ذلك أنه من قدسية شهر رمضان المبارك، استل الإمام يوماً من أقدس قضايا المسلمين: قضية فلسطين، فاختار آخر يوم جمعة من شهر رمضان ليكون «يوم القدس العالمي»[2] الذي يُحتفل به كل عام. وفي بيان إعلانه هذا الإختيار التاريخي، دعا الإمام الخميني جميع المسلمين في كل أرجاء العالم الى أن يتحدوا من أجل النهوض لإنقاذ القدس الشريفة السليبة «فيوم القدس هو يوم عالمي، وليس يوماً يخص القدس فقط، بل هو يوم مواجهة المستضعفين للمستكبرين»[3].

من خلال ما تقدم تتجمع الرؤية لمنهجية الإمام الخميني حول دور الشعوب في عملية الإصلاح والتغيير على المستوى الإسلامي والعلمي وفق الخطوط التالية:

- إن منهج المواجهة والمقاومة هو المنهج الوحيد المتاح أمام شعوب العالم الإسلامي وكل شعوب العالم، إزاء عالم الإستكبار وقوى الظلم.

- إن الإمام الخميني يقسم العالم الى قسمين او عالمين: عالم الإستكبار وعالم الإستضعاف.

- إن مفهوم التبعية يرتبط ارتباطاً عضوياً بهيمنة الدول الكبرى على الدول الضعيفة، فأينما كان نفوذ الدول الكبرى في العالم كانت التبعية والهيمنة.

- إن الإمام يدعو الى اقامة نظام بديل للنظام الدولي السائد، وذلك عبر المبادرة والحركة المتواصلة لشعوب العالم ومستضعفيه، لا سيما شعوب العالم الإسلامي، ضد جور هذا النظام واستغلاله لهذه الشعوب، بحيث يصبح تصليح هذا النظام وإقامة نظام قائم على العدالة الإجتماعية، بمثابة هدف شرعي لا بد من بلوغه.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) سمير رشدي و رياض عواد، الإمام الخميني والاستيطان الصهيوني، ص ١٥.